

## 212580 - كلمة ( شيخ ) وتطور دلالتها في اللسان العربي

### السؤال

سؤالي متعلق ببعض المصطلحات الإسلامية ، وأريد أن أفهم ما إذا كانت بعض الكلمات التي استخدمت في القرآن قد استخدمت خارجه بطريقة مغايرة ، وفي سياق مختلف ، فمثلاً كلمة : " شيخ " تعني لغوياً الرجل الكبير في السن ، وقد استخدمت في القرآن والسنة بهذا المعنى ، وبما أنه في زمن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن هناك حاجة إلى تصنيفات ومسميات لم يُستخدم - حسب فهمي - هذا المصطلح بطريقة مغايرة إلا فيما بعد ، استخدمه العلماء في سياق علمي محدد مخالف لما هو عليه في السياق اللغوي ، فمثلاً نجد أن هذه الكلمة عند جماهير العلماء تشير إلى شخص بلغ من العلم الشرعي مبلغاً محدداً ، ولم يقصد بها الشخص الكبير في السن ، أليس كذلك ؟ ، ثم ما السياقات الأخرى التي يمكن أن تستخدم هذه الكلمات فيها ؟  
كذلك عندما يقول العلماء : " رواه الشيخان " ويقصدون بذلك الإمامين البخاري ومسلم ، فهل يقصدون هنا أنهما كانا كبيرين في السن ، أم أنهما بلغا من العلم مبلغاً ؟

### الإجابة المفصلة

أولاً :

المصطلحات القرآنية ذات أصول لغوية واضحة ، ومعلومة لدى العرب في استعمالهم وخطابهم ، وغاية ما هنالك أن المصطلح القرآني قد يخص في بعض الصور ، أو قد يشكل عرفاً جديداً لدلالة تلك الكلمة ، بحسب التعريف الشرعي الجديد لها ، وإن كان هذا التعريف مشتملاً على الأصل اللغوي المعلوم نفسه .

فمثلاً كلمة ( الصلاة ) تعني في اللغة " الدعاء " ، وهي تطلق في القرآن الكريم على الدعاء وعلى العبادة المعلومة ذات الركوع والسجود والأذكار وبقية الأركان ، وهكذا تشكّل عهد جديد شرعي لهذه الكلمة ، ومع ذلك لم تفقد دلالتها على أصل الدعاء الذي لم تخل منه الصلاة المعروفة .

ثانياً :

وأما كلمة ( الشيخ ) فليس للقرآن الكريم عرف شرعي خاص بها ، بل جاءت فيه بالمعنى اللغوي المعروف فيها ، والذي ذكره ابن السكيت رحمه الله (ت244هـ) بقوله: " إذا ظهر به الشيب واستبان فيه السن فهو شيخ " انتهى من " الكنز اللغوي " (161) ، ينظر : " لسان العرب " (33-3/31) ، " تاج العروس " (289-7/286) .

وقد وردت كلمة شيخ في القرآن الكريم في أربعة مواضع بهذا المعنى ، وهي :

قوله تعالى على لسان زوجة إبراهيم عليه السلام : ( قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ  
وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ) هود/72 .

وقوله عز وجل على لسان إخوة يوسف : ( قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ  
أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنْ

الْمُحْسِنِينَ ) يوسف/78.

وقوله تعالى على لسان الجاريتين اللتين سقى لهما موسى عليه السلام : ( قَالَ مَا  
خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصَدَرَ الرَّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ  
كَبِيرٌ ) القصص/23.

وأخيرا قول الله سبحانه : ( هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نُرَابٍ تَمَّ مِنْ  
نُطْفَةٍ تَمَّ مِنْ عَلَقَةٍ تَمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا تَمَّ لَتَبْلُغُوا  
أَشُدَّكُمْ تَمَّ لَتَكُونُوا شُيُوخًا ) غافر/67 .

جاءت في هذه المواضع جميعها بالمعنى اللغوي الدال على كبر السن .  
ثالثا :

ومع ذلك يجوز إطلاق كلمة ( شيخ ) لغةً وعرفا على مَنْ يكثر علمه ، ويشتهر بالمعرفة  
بين الناس ؛ لأن هذا المعنى له علاقة بالمعنى السابق ؛ إذ المشيخة - التي هي كبر  
السن وتقدمه - يفترض أن تكون سببا في زيادة العلم ودقة المعرفة ، ولهذا أطلقوا على  
من حاز المعرفة وصف ( الشيخ ) ، كما يقول الراغب الأصفهاني رحمه الله : " يقال لمن  
طعن في السن : ( الشيخ ) ، وقد يعبر به فيما بيننا عن من يكثر علمه ، لَمَّا كان من  
شأن ( الشيخ ) أن يكثر تجاربه ومعارفه " انتهى من " المفردات في غريب القرآن " (ص/469) .

وقد أدى إلى هذا الاستعمال الجديد - نسبيا - دخول الحراك العلمي على البيئة  
العربية التي كانت أمة أمية لا تكتب ولا تحسب ، فجاء الإسلام بالعلم والمعرفة ،  
وبدأت النهضة تتمثل بالمعلمين من الصحابة الكرام ، الذين انتشروا في البلاد ،  
فتلمذ التابعون عليهم ، وبدأ لقب ( الشيخ ) يتمحور حينئذ في وقت مبكر من التاريخ ،  
بل في عصر الاحتجاج اللغوي ، خاصة بين المحدثين ، إذ لم يتردد أحد منهم في إطلاق  
وصف ( الشيخ ) على من يؤخذ عنه الحديث ، في مقابلة التلميذ الذي يتلقى الحديث .  
رابعا :

هذا وقد أطلق المحدثون كلمة ( الشيخ ) ( إطلاقات أخرى عدة :

منها : إطلاق عام للتعريف بالراوي بذكر بلده أو عائلته ، ووصفه بالمشيخة إنما يعني  
انتساب هذا الشخص إلى العلم والرواية ، وإن لم يكن له كبير شهرة فيه ، كما قال ابن

معين في داود بن علي بن عبدالله : " شيخ هاشمي ، إنما يحدث بحديث واحد " ينظر " تاريخ ابن معين - رواية الدارمي " (1/108) .

ومنها : الدلالة على التلميذ والمعلم ، كقول الناقد في الراوي : شيخ لفلان ، أو شيخ يروي عن فلان ، وخاصة فيما إذا كان التلميذ معروفاً مشهوراً ، وشيخه ليس كذلك ، فيعرف الشيخ بأن فلاناً الراوي المشهور من الرواة عنه .

ومنها : إطلاق المحدثين هذا الوصف بقصد الدلالة على عبادة الراوي وصلاحه ، وإن لم يكن له في العلم أي مشاركة ، كما جاء في ترجمة حجاج بن فرافصة الباهلي ، قال عبد الرحمن بن أبي حاتم : " سمعت أبي يقول : حجاج بن فرافصة : شيخ صالح متعبد " كما في " الجرح والتعديل " (3/164) .

ومن أشهر إطلاقات المحدثين لكلمة ( شيخ ) يريدون بها مصطلحاً نقدياً خاصاً يتعرض فيه لذكر مرتبة الراوي ، وتكون فيه كلمة " شيخ " مقرونة مع مصطلح آخر من مصطلحات النقد الحديثي ، قد يكون من ألفاظ التعديل ، وقد يكون من ألفاظ الجرح . وهذا الإطلاق من دقيق ألفاظ الجرح والتعديل التي كتبت فيها الأبحاث المتخصصة في دراستها وتحرير مراد المحدثين بها . ينظر رسالة دكتوراة بعنوان : " مصطلح شيخ عند المحدثين ، دراسة نظرية تطبيقية في الكتب الستة " ، للدكتور عبدالرحمن مشاقبة ، الجامعة الأردنية ، 2011م .

وهكذا تشكلت أعراف خاصة لكلمة شيخ لدى قطاعات علمية متنوعة ، فالمحدثون إذا قالوا ( رواه الشيخان ) أرادوا بهما البخاري ومسلما ، وفقهاء الشافعية إذا قالوا : (

الشيخان ) أرادوا بهما الإمامين الرافعي والنووي ، والحنفية يطلقون ( الشيخين ) على أبي حنيفة وأبي يوسف ، وعند الحنابلة هما الموفق ابن قدامة والمجد بن تيمية . ينظر كتاب " المدخل إلى دراسة المذاهب الفقهية " .

وهكذا يتفاوت الإطلاق ويتشكل العرف الخاص ، وكلها اصطلاحات تحتلها اللغة ، ولا مشاحة في الاصطلاح .

والله أعلم .